الفصل التاسع

الإلحاد ظاهرة أم حقيقة؟

الإلحاد ظاهرة أم حقيقة؟

تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله، ولا رب إلا الله ولا خالق إلا الله، ولا باقي إلا الله، وكل ما في الوجود آتي الرحمن عبدًا، يسبح له ما في السماوات وما في الأرض، ويسجد له ما في السماوات والأرض طوعًا أو كرهًا، والحديث عن أمر دنيوي من هذه الموجودات من أرض وسماوات وأجرام سماوية، أو وصف لأعمال الدنيا وأحداثها من خير وشر وإيمان وكفر وإلحاد وموت وحياة ومعتقدات، كل ذلك داخل في الأشياء التي تقع تحت هيمنة الجبار العظيم على ملكه العظيم، فلا داعي أبدًا للقلق من سماع مصطلح الإلحاد، ولا حتى من وجوده أو وجود الكفر والشرك ممن أعماهم العناد والكبر عن قبول الحق، فالأمر أعظم وأكبر، وكله لله وإنا وكل شيء في هذا الوجود من ملموس أو محسوس، مادي أو معنوي كل ذلك لله وإنا إليه جميعًا راجعون.

نستحضر هذه المسلمات الكبرى قبل أن نتحدث عن ظاهرة الإلحاد التي هي شائبة عرضية لا تعكر صفو هذا الإيمان الكوني الداحض لكل شبهة والمعالج لكل وسوسة، والاعتراض على تضخيم ظاهرة الإلحاد بين الناس لا يعني تجاهلها، إذ لا يمكن إنكارها وقد اختصم حولها البشر عبر التاريخ ابتداءً من الدهريين وانتهاءً بالمعاصرين، ولكن مهما بلغت تلك الظاهرة فلن تكون بالحجم الذي يروجه دعاته الذين يوهمون الناس بعبارات نفسية مضللة مستخدمين تكتيك (الصدمة والترويع)، فيستفيدون من الانعكاسات النفسية القوية لدى أصحاب الفطرة السليمة عندما يسمعون عن أي همسة إلحادية، ثم يجفلون منها خوفًا على إيمانهم الثمين، وثقة الأمة بإيمانها بربها جعلتها تكتفي بالدفاع فقط عن الإيمان أمام مشاغبات هذه القلة المزعجة وهجومها من مروجي الإلحاد الذين لو وضعوا في موقف الدفاع عن قناعاتهم الزائفة لانهارت دفاعاتهم فورًا، ولم يجدوا عن الحق المبين محيصًا.

المشكلة مع الإلحاد ليست في عدد معتنقيه الذين هم أصلًا أقلية هامشية تكاد تكون منبوذة بين الناس، وإنما في حجم الضجيج والإزعاج والأذى الذي يسببه وخز

الإلحاد في صفاء نسيج الفطرة الإيمانية السليمة، إنه أشبه ما يكون بذبابة صغيرة تزعج آلاف الموجودين في قاعة كبرى يتدارسون أمرًا عظيمًا دون أن تشكل خطرًا على وجودهم، ولعل أبلغ وصف لحجم الإلحاد الحقيقي هو ما يمكن استنتاجه من مقولة زعيم الملحدين المعاصر (ريتشار داوكيز) حيث قال: «إذا كانت القطط (ويقصد بذلك الملاحدة) لم تمثل قطيعًا بعد، فإن أعدادًا معقولة منها تستطيع أن تصدر ضوضاء مزعجة لا يمكن تجاهلها»[1].

وأما الإلحاد الحقيقي فهو موجود أيضًا، ولكنه في أضيق دوائر الاعتقاد قابعٌ في زاوية نائية من سلم الفكر والمعرفة الإنسانية، يخشى تدفق طوفان الإيمان، ويترقب انقضاضه عليه اعترافًا منه بأن لا طاقه له به، وتحديدًا يقع الإلحاد الحقيقي في منطقة (ما) بين معتقدات قلةٍ ملحدةٍ تضخم هذا الأمر تظاهرًا لا اقتناعًا بهدف الاستئناس بالأرقام من وحشة الإلحاد المهددة للكيان النفسي عندهم، وبين تجاهل الظاهرة الطبيعي جدًّا من قبل الأغلبية الساحقة من مليارات البشر المؤمنين والمنشغلين عنها بما هو أهم وأولى في حياتهم.

وتبقى المبالغة بتضخيم ظاهرة الإلحاد وتنامي أعداد الملحدين، خطوة تفتقر إلى الموضوعية والبرهان، إذ لا توجد إحصائية علمية دقيقة عن نسبة الملحدين في العالم، والحديث عن نسبة الملحدين في أي مجتمع لا بد أن يسبقه تحديد لنوع الإلحاد[2] المزمع دراسته، أهو الإنكار المطلق أم الشك؟ أم اللا أدرية؟ أم أنه إحباط له سبب جوهري انعكس على شكل ملل وضجر وانصراف عن الدين، وهكذا كل ما في الأمر أن جهة (ما) تتلاعب بالمشاعر الغافلة، تنتقي مجموعة من الأشخاص ربما لا يمثلون المجتمعات قطعًا، ومن خلال استبيان مبسط موجه، ينشرون استقراءهم، ما يعطي تضليلًا موهمًا، بيد أن هناك بعض الدراسات الميدانية توضح أن نسبة الإلحاد الحقيقي

(١) وهم الإلحاد، شريف، (مرجع سابق)، ص٣٠.

(٢) حالات الإلحاد إما أن تكون ظاهرة (لا دينية) وهو عدم الاعتراف بالإيمان والأديان والصلة بالله أو (لا أدرية) وهي حالة وسط بين الإيمان والإلحاد وكل الحالتين إلحاد خطير لا يعفي من المسؤولية أمام مواجهة المصير المحتوم للإنسان عند خروج روحه وإدراكه لمصيره.

قد تصل في أمريكا إلى نحو ٥٪، وفي باكستان ١٪، وماليزيا ٤٪[1]، في الوقت الذي لو تتبعنا مبالغات الملحدين وضجيجهم الإعلامي لتوقعنا أن أكثر من نصف سكان الأرض ملاحدة، تلك أمانيهم والله يخيبها بإذنه تعالى، ولا نستغرب من دعاة الإلحاد هذه الاستماتة في ترويجه إذا كان أهل الكتاب على إيمانهم بالله يحملون ضد المسلمين شعورًا مقاربًا يتمنون به كفرهم لدوافع لا علاقة لها بالمعتقد كالحسد، قال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ١٠٩].

إن أخطر ما في ظاهرة الإلحاد أنها تبدأ سرًّا داخل الكيان النفسي للإنسان، ثم تتطور بصمت قبل أن يصل (المصاب بها) إلى مرحلة التصريح، تحت مقاومة هائلة من الدفاعات الإيمانية الفطرية، والنفور من البيئة الرافضة له، ويبقى هذا التخوف الذي يغشاك من أي جزئية إلحادية دليلًا قاطعًا على وجود إيمان متجذر في قلبك يزاحمه سماع هذه الكلمة ولا يتكيف معها، ولولا ترويج ظاهرة الإلحاد وتضخيمها في الوقت الراهن وتداول الناس لمصطلح الإلحاد بدرجة أكثر نسبيًّا من الماضي، وقلق الأبرياء من وهمه، لما تطرقنا إليه في هذا الكتاب؛ لأنه ليس قضية كبرى، وماذا سيكون شأن حفنة محدودة من الناس تزعم اعتقادها بالإلحاد مقارنة بيقين المليارات المؤمنة من شتى الأديان حتى وإن كانوا يقعون في أشد الذنوب كالمشركين أنفسهم الذين قال الله عنهم: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٨].

سيبقى الإلحاد ظاهرة لا تغير من الأقدار الكونية الكبرى شيئًا، ونواميس القدر تسير في طريقها، وعجلة الأحداث تسير وفق ما هو مقدر لها، ومن ذلك رسوخ الإيمان

---

(١) أجرت صحيفة النيويورك تايمز في عددها الصادر في ٢٧ فبراير ١٩٩٢م استطلاعًا في صفحتها التاسعة كانت نتيجته أن ٩٦٪ من الأمريكيين يؤمنون بوجود إله للكون وكانت نتيجة استطلاع أجرته مجلة US news World Reprot في ص٤٨ من عددها الصادر في ٤/ ٤/ ١٩٤٩م أن ٩٣٪ مؤمنون: (نقلًا عن كتاب: الفيزياء ووجود الخالق، جعفر إدريس، ص١٩).

عند خلق الله من بشر وشجر وحجر ووجود، فالكل عبدٌ لله، يسبح بحمده، وأيًّا كان الأمر فعلى الإنسان أن يحافظ على هذا الكنز الثمين من الإيمان الفطري الراسخ بداخله، وينجو بنفسه من أهوال الدنيا الموصلة إلى أهوال الآخرة مع فقدان الإيمان، لينتبه الإنسان لنفسه غير مكترث بمواقف الآخرين من حوله، وعليه أن يوطن نفسه على هذا الموقف الإيماني حتى لو كفر وألحد وأشرك من في الأرض كلهم جميعًا، فليكن رأسه مرفوعًا، وأن يعتز بإيمانه، وصلته وأنسه بربه الذي هو معه في كل مراحل وجوده حتى يلقاه.

إن سبب وجود هذه السعادة الخاصة التي تغمرك وأنت تنعم بيقين الإيمان - يا عبدالله - هو شعورك الصادق بأن معك ربًّا قويًّا قادرًا حيًّا لا يموت، يعلم كل شيء عنك وعن غيرك من الخلق، فالقرب منه سعادة ونجاة، والبعد عنه شقاء وهلاك، يأنس المؤمن بربه الخالق في حياته، ويطمئن إلى وعده الحق بعد مماته بأنه سيكون في رعايته وعنايته، فمن ذا الذي ينازعنا هذا الإيمان اللذيذ بوجود الله؟ هذا الإيمان هو الذي يجعل وقع كلمة (إلحاد) ثقيلًا مخيفًا مرعبًا على مسامع أصحاب القلوب المؤمنة، ولا يلامون على ذلك، فهذا الشعور الفطري النافر من الإلحاد شهادة لهم بالإيمان الأصيل المتجذر في قلوبهم، كما قال الحسن البصري عن النفاق: «ما خافه إلا مؤمن ولا أمنه إلا منافق».

والإلحاد دخيل غريب على منظومة الوجود كله، ففي أول الخلق كان أبونا آدم وأمنا حواء والملائكة مؤمنين إيمانًا مطلقًا، بل وحتى إبليس زعيم كل شر في الدنيا في حواره حول علاقته ببني آدم، كان يطلب من الله أن ينظره إلى يوم البعث، فلا ملحد حينها من الخلق، وعلى الرغم من وجود جذور الإلحاد في التاريخ القديم إلا أنك تعجب أن أول كتاب يصدر في أوروبا مصرحًا بالإلحاد كان عام ١٧٧٠م، وفي بريطانيا عام ١٧٨٢م[1]، وأن نسبة الملحدين في أوروبا وأمريكا لا تزال قليلة جدًّا مقارنة بالمؤمنين بوجود إله للكون.

وعلى الرغم من تردد مصطلح الإلحاد على مسامع الناس إلا أنها تتفاوت تصورات الناس عن صوره، ويمكن القول: إن المقصود بالإلحاد الدارج في العصر الراهن هو مجرد

(١) الفيزياء ووجود الخالق، جعفر شيخ إدريس، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م، ص١٩.

الإنكار الرافض للإيمان دونما منطق ولا فلسفة ولا برهان، وله أربع صور شائعة: إما أن يكون ابتلاء بتضارب الأفكار لسبب حسي أو معنوي، أو جهل أو إصابات عقلية مربكة للتفكير، انتهت بالإنسان إلى فوضى واضطراب لا يقدر على التحكم به، وإما أن يكون ما يسمى الإلحاد الفكري القائم أصلًا على إنكار وجود الله مع الإعراض عن البحث والتحري في الأمر، وإلحاد ثالث يجد فيه صاحبه حرية مطلقة لإشباع شهواته بلا قيود تحت مظلة الإلحاد، وملحد رابع يتبنى الإباحية سلوكًا، ويروجها، فيستميت في المدافعة عنها لدوافع غرائزية بحتة ليس فقط لملذاته بل بهدف توسيع دائرة الفساد وإشاعة الفاحشة بين الناس جميعًا ليأنس بهم في ضلاله، والصورة الأولى هي الأهم في التطرق لقضية الإلحاد، أما بقية الصور فهي صور شيطانية بحتة ناتجة عن العناد وعبادة الشهوات واتباع الهوى، تحت ذريعة دعوى الإلحاد، وليس المقصود منها إنكار الله بقدر ما هي بوابات شهوانية للتحرر من القيود والآداب العامة لإشباع الغرائز تحت الخديعة الكبرى الزائفة بأنه لا إله، ولا حساب بعد الموت.

أما الصورة الأولى من الإلحاد فهي المقصودة هنا، التي يمكن تصنيف ضحاياها إلى ثلاث مجموعات رئيسة، وهي:

١- مجموعة المفكرين والفلاسفة التائهين الذين انخدعوا في نظرية داروين (العلمية) ومن ثم أقنعوا أنفسهم بأن الوجود يرجع إلى المادة الأولية، وأنه لا يحتاج إلى إله، وعليه لا توجد ضرورة لبحث هذه المسألة، وأن العلم قد كفى الإنسان ذلك، فوجدوا في الإعراض راحة بال شكلية وتخلصًا من مأزق الجدل العقيم، ومن المعلوم ما دار مؤخرًا من جدل حول صحة نظرية داروين التي لم تكن أصلًا محل إجماع علمي، علاوة على قوة حجج من قالوا: إن تاريخ الإنسان لم يبدأ من الصفر، ثم يتصاعد في خط مستقيم في التطور كما يزعم الماديون، بل إن الإنسان قد دخل هذه الحياة برأس مال أخلاقي مبدئي هائل لم يكن موروثًا ولا منقولًا عن آبائه المزعومين من كائنات حية أخرى[1].

(١) الإسلام بين الشرق والغرب، علي عزت بيغوفيتش، (مرجع سابق)، ص٢١٤.

٢- مجموعة الانتهازيين كالشيوعيين الذين يريدون تسخير البشر لعبادتهم والسير وراءهم لاستغلالهم في الصناعة والإنتاج، فوجدوا الدين عائقًا دون تحقيق هذه المآرب الدنيئة، فحاربوه وقاتلوا من لا يوافقهم، وأكرهوا على ذلك بلا رحمة.

٣- مجموعة الفئات الصامتة والمتفرقة من شتى الملل والأديان ممن لديهم شكوك كامنة عن وجود الله دون أن يطرحوها للنقاش إما ترددًا أو خوفًا[1].

*****

النفور من الإلحاد

لِنُنَحِ جانبًا كل شيء قيل أو يقال أو سيقال عن الإلحاد من كتب ومناظرات وغيرها يتشبث بها أصحابها وفق قاعدة: ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[الروم: ٣٢] ولنرجع إلى تحكيم الذات المحكومة بالفطرة، لن أحيلك - أخي القارئ - إلى كتب التاريخ والمراجع التي قد نختلف حول صلاحيتها للاستدلال، بل لا بد من الدخول إلى أعماق نفسك، وتحديدًا إلى منصة مسارحها الباطنة والأكثر مصداقية عندك بلا شك، يكفي أن أخاطب وجدانك المتلمس للحق عازفًا على وتر الثقة المطلقة بينكما، فتعالَ حدثني بصدق عن نفسك، هل يمكن أن تفسر لنا سر هذا الشعور الذي يغشاك فجأة عندما يطرق مسامعك هاتان الكلمتان (إلحاد) و(ملحد)؟ حدثنا بصدق عن هذا المزيج الغريب من الرعب والنفور اللاإرادي، والاهتراز الوجداني الذي يباعدك عنهما، والحيرة الممزوجة بحب الاستطلاع مدًّا وجزرًا، شدًّا وجذبًا بداخلك، لمجرد سماع هذه الكلمة ومشتقاتها، وكأنك حين تسمعها قد رأيت ثعبانًا ضخمًا يلتف على عنقك، أو حيوانًا مفترسًا يقترب منك، أو شبحًا كاسرًا يتربص بك، ففي الوقت الذي تريد أن تحمي نفسك من خطره، تجد نفسك أيضًا مشدودًا لمشاهدته من أجل الحذر منه، وإن كنت خائفًا من الاقتراب منه، وهنا تتحرك لديك غريزة حب الاستطلاع، التي لا تظهر

(١) رحلة عقل، شريف، (مرجع سابق)، ص٢١.

عادة إلا لمعرفة ما وراء الأشياء الغريبة، ما يؤكد أن (الإلحاد) غريب ودخيل على الحياة، ويتنافى مع توازناتها واستقرارها المادي والروحي.

قارن هذه الحالة المرجفة، وتلك الطمأنينة والاسترخاء الذي تنعم به عندما تكون بين أهل اليقين والإيمان، أو عندما تكون منهمكًا في حياتك اليومية المغلفة بالإيمان الفطري المتوازن الذي تتذكره دائمًا، ثم تذكر أيضًا أن الأفكار المقلقة لا تزاحمك إلا في أوقات الفراغ الشديد، وكأنها نفايات تتراكم في فجوة تُركت فارغة من شيء مفيد وثمين! يتم ردمها بأي مادة أو فكرة، حتى لو كان ذلك خوضًا عشوائيًّا في الإيمانيات الراسخة؛ لأنها الأقرب والأكثر مناسبة ومناغمة لضميرك، ولأنها أيضًا متواصلة لا تنتهي أبدًا، وماذا لو لم يكن هناك فراغ فكري أصلًا، عندما تملأ وعاء الفكر بالعلم النافع، بحيث لا تترك فسحة ولا هامشًا لأي متسلل غريب إلى فكرك الناصع، أرأيت فوائد التذكير الدائم بالتزود بالتقوى والعلم النافع وتلاوة القرآن؟!

نحن هنا لا نغالط أنفسنا، فننكر وجود ظاهرة الإلحاد المنغصة على الأجواء الإيمانية العامة، حتى وإن كانت بدرجات متفاوتة، ففي الوجود مهتدون وضالون، لكننا ننادي بقوة بأن توضع هذه الظاهرة في حجمها الطبيعي بل والهامشي جدًّا على المنصة المزدحمة بالفكر السوي، والإيمان الصادق والوحي المنزه والفطرة السليمة، بعيدًا عن ذلكم التهويل والتعقيد الذي يوحي للمتابع وكأن الأمر يضاهي وباء الطاعون الذي اكتسح أوروبا في القرن الرابع عشر الميلادي، والذي قضى على ما يقارب ثلث سكان القارة خلال أربعة أعوام فقط (١٣٤٧-١٣٥١م)، يجب أن نكشف الحقيقة، ونعلن بصوت مرتفع أن ظاهرة الإلحاد على الرغم من حساسيتها ما هي إلا قشرة سطحية على كوكب اليقين العظيم، قوامها شظايا متناثرة من شذرات التيه الفكري والاضطرابات التي لا تصل بسهولة إلى أعماق الإيمان الفطري المتجذر في النفوس المتوازنة، ولم يعرف العالم الإلحاد المعلن قبل حلول القرن الثامن عشر الميلادي سوى وجود قلة لا تكاد تذكر، وأحيانًا لا يظهرون أفكارهم خوفًا من سطوة أهل الفطرة السليمة عليهم، حتى جاءت

الثورة الشيوعية، وأسست دولة الإلحاد بالحديد والنار، ثم ما لبثت أن انهارت هي الأخرى فيما بعد؛ لأنها أسست على شفا جرف هارٍ، فانهار بها[1].

يستطيع الإنسان العادي أن يقارن بفطرته السلمية بين الحالة النفسية لمفكر أو فيلسوف أو عالم عالمي ملأ الدنيا ضجيجًا وجدلًا بمحاولات جبارة منه لإثبات ما لا يمكن إثباته ماديًّا من الغيبيات، أمضى حياته لاهثًا وراء ذلك، وبين الحالة النفسية لامرأة عجوز ترعى غنيماتها في صحراء نائية، وحيدة تحت خيمة ممزقة قد تقيها حر الشمس دون قر الشتاء، لكن هذه العجوز تصبح على يقين، وتمسي عليه، تنام وتصحو وهي على موعد أكثر يقينًا بوجود ربها بالغيب، ترفل بسعادة لا نظير لها لمجرد أنها تسير على طريق آمن نحو المستقر الأبدي والنعيم المقيم، تدرك معالمه وفق خارطة واضحة المعالم، وكلها أمل وكلها طمأنينة وابتسامات جميلة، وحسن ظن بخالقها؛ لأنها ستصل إلى المحطة النهائية التي سيصلها الجميع وأكثرهم خائفون، أما هي فستصل بكامل أمنها وطمأنينتها، لربما نراها عجوزًا مغمورة، لكنها تملأ الكون إيمانًا متدفقًا بأن الله ربها ورب غنيماتها ومنزل المطر الذي تشرب منه، وترعى عشبه، وهو جالب العافية ومقدر المرض ومدبر حياتها وموتها، هو الله الذي لا إله إلا هو، فتسير نحوه مشتاقة مؤمنة بكل يقين أنها بموتها ستأوي إلى بيتها ومستقرها الدائم عبر طريق سعادة تنقلب فيه المنغصات الطارئة إلى ملذات دائمة، لم تكلف نفسها أبدًا عناء البحث عن غيره؛ لأنها على يقين أن لا إله غيره ولا رب سواه، استقوت بهذا القوي وهي الضعيفة، واستغنت به عن كل فقير ضعيف له، فوصلت إلى المنتهى في السعادة بركنيها الإيمان والعمل الصالح، إنها تلك الأنثى التي جاء خبرها ضمن أولئك الممدوحين من الذكور والإناث ممن هم على شاكلتها ينتظرون أعظم البشائر وأوفى الجزاء من الكريم الذي وعدهم بقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[النحل: ٩٧].

راقب نهاية هذه العجوز المؤمنة لترى وتعلم علم اليقين، أنه بعد مغادرتها الدنيا ودفنها في المقبرة، لن يكون هناك أي فرق بين قبرها وقبر ذلك العالم المفكر الذي أضناه

(١) الفيزياء ووجود الخالق، جعفر إدريس، (مرجع سابق)، ص١٨.

البحث عما لا طاقة له به للحصول على إجابات لتساؤلات أمضى عمره فيها دون جدوى، يقرّ في نهاية المطاف أنه عاجز عن الخلوص إلى ما خلصت إليه تلك العجوز من يقين دون عناء، لقد كانت نتيجة نفاد عمر ذلك المفكر والباحث عن الحقيقة أن استسلم في آخر المطاف، وهو يقترب قلقًا من قبره كما تقترب تلك العجوز المطمئنة من قبرها، وغاية ما يتمناه تلك اللحظة، وهو يغادر الدنيا هي قوله بكل ضعف واستسلام وانكسار: (اللهم، إيمانًا كإيمان العجائز)[1].

*****

إيمان النبيين لا إيمان العجائز

كنا نسمع في مراحل الطفولة والشباب من يحدثنا عن حيرة الفلاسفة وأهل الكلام، فلم نستوعبها، لم نشعر بأنها قضية تستحق التوقف عندها، لفضل الله علينا بوجود زاد فطري قوي فائض في أوساطنا، ولكوننا لا نشعر بإشكالية تصادم الأفكار المستوعبة، حتى طال بنا الأجل، وتفتقت أذهاننا لها، فأدركنا يقينًا أن قضية الإيمان بالله كانت ولا زالت، وستبقى من أهم القضايا الكونية التي تشغل أهل العقول على الإطلاق، وهي المدخل الأوحد لكل معرفة وتفسير، ولا ينبغي أن تبنى على قواعد هشة أو مجاملة أو تلميح أو منطق ضعيف أو مغالطات أو عرف موروث، بل لا بد من القوة في الوضوح الصريح والبيان بكل أمانة وإخلاص، وأن يتشربها العقل والقلب إلى الأعماق حتى يصل المرء إلى الحد الأدنى من الإيمان اليقيني الضروري، إنه إيمان المرسلين والصالحين والعلماء الذي يحصنه أمام الابتلاءات والشدائد، وليس إيمان العجائز الهش الذي قد

(١) هذه العبارة تنسب إلى فخر الدين الرازي والحقيقة أنها عبارة لا ينبغي أن تقال على إطلاقها إلا في حالات معينة كالرد على عبثية أهل الكلام حول علم الغيب؛ لأنها على إطلاقها توهم بالضعف والاستكانة وكأن المرء يلوذ بهذا الضعف نحو إيمان العجائز حيث النقاء والطهارة بديلًا عن تلمس الحقيقة الإيمانية الراسخة وحيث إن إيمان البسطاء والعجائز لا يصمد غالبًا أمام الابتلاءات والفتن كصمود إيمان الراسخين في العلم فالأولى أن يكون الدعاء: (اللهم، إيمانًا كإيمان الرسل والصحابة والعلماء الذين هم أشد خشية لله من العجائز).

ينقشع لمجرد وقوع مصيبة الموت لولد أو والد أو قريب، فيظهر الضجر والنياحة على حساب الصبر والاحتساب.

إن استحالة مجاملة الإنسان لنفسه في عقله الباطني هو ما يجعلنا نحيل إلى حواره مع ذاته حتى لو كان صامتًا؛ لأن الحوار مع الذات من أبلغ الحوارات أثرًا في النفس، والآن سوف نحيلك إلى ذاتك مباشرة وللمرة الثانية، ولنجعلك حكمًا أمينًا عادلًا مع نفسك! ولا نريد استنطاقك بالإجابة علانية خشية الحرج الوهمي الذي تربى عليه الكثير منا، بل وجه السؤال أنت بنفسك إلى نفسك سرًّا وتسلّم الإجابة منها سرًّا، وهذا يكفي للثقة التي نريد أن تعيشها معنا بكل محبة وود، ولنبدأ بالسؤال: هل رأيت أو سمعت أو وجدت ملحدًا سعيدًا عبر التاريخ؟ هل رأيت قط ملحدًا غير غارق في القلق المتواصل والوحشة واضطراب الحياة والبؤس والخوف الرهيب من المستقبل وتكرار تفكيره في الانتحار؟ بل بعضهم فعله، وانتحر! وهل يفكر في الانتحار من هو راضٍ بوضعه ومتوازن مع نفسه؟ قل لي بربك: ألا تغشاك وحشة غريبة عندما تعلم عن وجود ملحد، أو تقترب منه، أو تجالسه! لماذا تغضب، وتخرج عن طورك لو تقدم ملحد لخطبة إحدى قريباتك؟ أو العمل في مؤسستك وإدارتك؟ بل لماذا لا تقبل به صديقًا لابنك مهما كان مستوى تدينك!

وحتى وأنت تزور المقابر، وترى قبور الأموات، أتحدى أن تنفك من هذا الشعور الإيجابي الغريب أيضًا: كيف يكون شعورك، وأنت تنظر إلى قبرين أمامك: أحدها قبر أحد الصحابة أو التابعين كسعد بن معاذ وأبي عبيدة - مثلًا- والآخر قبر أبي جهل أو أبي لهب أو حتى قبر (الملحد/ عبدالله القصيمي)! قل لي بربك: إلى أي من القبرين تحب أن تُسجّى بعد موتك بجانبه ليجاور رفاتك رفاته، أي جهة من المكانين ستختار لرفاتك وعظامك البالية مستقرًّا لها؟، لاحظ أننا نتحدث عن قضية نفسية محضة لها علاقة بالرفات والعظام البالية فقط، وليس عن الحياة والمال والولد والروح! حتى وأنت تدرك أن هذا أمر نفسي، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى، لكنك قطعًا لا تملك أن تتجاهل، أو تنكر تلك القوة الغريبة التي تقاربك من هذا، وتباعدك عن ذاك، تنحاز فطريًّا نحو قرب المؤمن حتى لو كان ميتًا، وتبتعد عن الملحد في الحياة وعن رفاته بعد الموت، وهنا أحيلك

إلى نفسك بكل ثقة ويقين بهذا الناموس الفطري الذي لا يمكن إنكاره، وهو يتجسد في هذا الشعور المتجذر داخل كل نفس متوازنة، فافهمه واتعظ، واعلم أنه برهان فطري مطلق، أكبر من كل قناعة ظاهرة سواء أكانت حقيقة أم مصطنعة! إنها فطرة الله التي فطر الناس عليها ولا تبديل لخلق الله، وذلك هو الدين القيم.

إن هذا الحوار الذاتي داخل النفس المتلمسة للحق ما هو إلا جزء من الحقيقة المطمئنة التي تدعمها دراسات علمية دقيقة كتلك النتائج التي نشرتها الرابطة العالمية لمنع الانتحار والتي قام بها متخصصون أثبتوا فيها ارتفاع حالات الانتحار عند الملحدين لتصل إلى ٢٥٦ حالة من كل مليون (ملحد)، بينما سجلت حالة انتحار واحدة من بين مليون مسلم[1]، ووصلت عند الهندوس إلى ٩٦، وعند البوذيين إلى ١٧٩، و١١٢ حالة انتحار عند النصارى.

ترى ما هو السبب في تفاوت هذه النسبة؟ أترك لك الإجابة أيضًا؛ لأنها واضحة جدًّا، وأناشدك بالذي خلقك وأنت الآن متعطش لسماع هذه الحقائق من البشر الذين يخطئون ويصيبون، فتجد فيها بعض الأنس والراحة النفسية، أن تسمع أيضًا هذا النداء من رب البشر الخبير القدير والعليم بكل شيء، أرسل الرسل، وأنزل الكتب، وبيّن للناس الرشد من الغي، وهو الحق وقوله الحق، إنها مناشدة من نوع خاص لا يليق بذوي العقول تجاهلها: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

حسبك يا ابن آدم، توقف هنا عن كل مكابرة أو عناد، واسمع كلام الخالق ﷻ، اخرج من غموض الوسوسة والحيرة إلى شاطئ الإيمان الآمن، لقد آن ذلك الأوان لكي تعلم أن هذا الارتياح النسبي الذي تجده في نفسك بعد طرح هذه التساؤلات عليها والإجابة منك إليك بصدق وتجرد، إنما هو نقيض الإلحاد الذي تخشاه تمامًا، بل هو من أقوى مؤشرات انتصار الإيمان الراسخ الذي تناغم فطريًّا مع هذه المنبهات، التي تعلن حالة الطوارئ لمجرد المساس بجوهر إيمانك، لتردك فورًا إلى ما فطرك الله عليه،

(1) A global perspective in the epidemiology of suicide, José Manoel Bertolote, and Alexandra Fleischmann, Suicidologi 2002,årg. 7,nr. 2.

وأشار إليه في محكم التنزيل بأنه جزء من خلقك، وأكد لك أنه راسخ لا تبديل له وأنه الدين القيم الذي أمرك بإقامة وجهك وتحديد وجهتك إليه وحده، فهو الملاذ الحقيقي من كل ما يقلق، قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

*****

قلب الطاولة على الملحدين

إن حقيقة تصور الملحدين لفكرة الإلحاد لا تخلو من هوس عقيم لا يقبله العقل، فترجمة تبني الإلحاد عندهم هي: أنه كان هناك لا شيء! ولا شيء حدث للاشيء! وبعد ذلك وفجأة انفجر اللاشيء! ومن دون سبب أوجد شيئًا! ومن ثم ترتبت أشياء بطريقة (سحرية) لا يملكون لها أي تفسير، وتشكلت خلية حية تطورت لتصبح ديناصورات![1] أي منطق هذا! يسألهم العقلاء: ما ذلك اللاشيء؟ وكيف عرفتموه وهو لا شيء؟ وكيف نتج شيء من لا شيء؟ ولماذا حدث مرة واحدة؟ لماذا لم يتكرر؟ فلا جواب! وسبحان من أخبرنا عن هذه الجدلية العقيمة وحيًا قبل وقوعها، قال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور: ٣٥- ٣٦].

وهناك حقيقة غائبة عن الكثير من الباحثين في ظاهرة الإلحاد، وهي إن أهم الأسس التي قام عليها الإلحاد هو اعتماده على الدليل السلبي، وهو الاعتماد على النفي والإنكار، أي إنه لا يملك أي دليل إثبات مستقل بذاته لما يدعونه، فهو يقوم على مهاجمة الآخرين واستهداف أدلتهم فقط بالنفي والتشكيك، ولو تتبعت مناظراتهم لوجدت أنهم عادة ما يطلبون من المؤمنين أدلة على وجود الله، ويبدو أن الناس جميعهم ماضون في محاولة إقناعهم بالأدلة عن حسن نية وطمعًا في ردهم إلى دائرة الإيمان مع الرفق بهم، ولو أننا

(١) مدونة ضد الإلحاد Anti Atheism على الشبكة العنكبوتية.

أذقناهم لوعة الجدال بأن نطلب منهم أدلة الإثبات على اقتناعهم المزعوم بعدم وجود الله لتورطوا، وذلك لأن أدلة إثبات وجود الشيء سهلة جدًّا مقارنة بأدلة نفي وجوده.

ولتوضيح ذلك، إذا أخبرت أحدًا بأنه يوجد في دولة الصين ثعبان أسود، حينها ما عليك إلا أن تبحث في أي زاوية منها لتجد ثعبانًا واحدًا بهذه الصفة، فيتقرر صدق ذلك الخبر عنك، ويختلف الأمر تمامًا عندما تقول: لا يوجد في الصين ثعبان أسود، ففي هذه الحالة وحتى يثبت صدقك يجب عليك أن تمشط بلاد الصين تمشيطًا دقيقًا بكاملها، بيتًا بيتًا، شارعًا شارعًا، مزرعة مزرعة، واديًا واديًا، جبلًا جبلًا، جحرًا جحرًا، حجرًا حجرًا؛ لكي تثبت صدق خبرك بالنفي، وهذا أمر في غاية الاستحالة، فالمثبتون لوجود الله يكفي أن يقدموا دليلًا واحدًا على ما يعتقدونه من حق وما أكثر الأدلة والحمد لله، بينما الذي ينفي ذلك عليه أن يقضي على كل احتمال لوجود أي دليل علمه الإنسان أم جهله يثبت وجود الله! وهذا مستحيل جدًّا جدًّا، وقد أشار إلى هذه الحقيقة (آدلر مرتيمر)[1] بقوله: «يمكن برهان نظرية وجود إيجابية، أما نظرية الوجود السلبية (النفي) فلا يمكن برهانها»، لكن عدم استخدام المؤمنين لهذا السلاح الفتاك في مواجهة الملحدين دليل ضمني على اللامبالاة بما يوسوس به الملحدون واعتزاز المؤمنين بإيمانهم.

ومما يتقوى به دعاة الإلحاد، ادعاؤهم أن غالبية العلماء والمخترعين والمكتشفين هم من الملاحدة، ولن نضيع وقتنا في الجدل لدحض هذا الادعاء الزائف، ولكننا سنكتفي بإحالتهم إلى ما نشره العالم الألماني الدكتور (دينرت) عندما أجرى دراسة علمية على ما يقارب ثلاث مئة عالم، هم من أكثر العلماء إنتاجًا واختراعًا في تاريخ الإنسانية، وممن رسموا معالم الحضارة المعاصرة، فوجد أن أكثر من ٩٠٪ منهم لم يترددوا في التصريح العلني بإيمانهم بالله[2]، وفي دراسة حديثة ثبت أن ٦٥٪ ممن حصلوا على جائزة نوبل هو من أهل الأديان، و٢٤٪ منهم ربوبيون، أما المنتمون إلى الإلحاد واللأدريون فكانت

(١) أدلر مورتيمر Adler Mortimer (١٩٠٢ - ٢٠٠١م) الموافق (١٣٢٠ - ١٤٢٢هـ) فيلسوف أمريكي وأستاذ الفلسفة في جامعة شيكاغو كرس حياته لخدمة فلسفة أرسطو وتوما الإكويني من أشهر مؤلفاته (ما فعله الإنسان بالإنسان) و(أرسطو يرسم الجميع): (معجم الفلاسفة، طرابيشي، ص٤٥).

(٢) روح الدين الإسلامي عفيف عبدالفتاح طبارة الطبعة الثامنة والعشرون، ١٩٩٣، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ص٨٦.

نسبتهم ١١٪ خلال المئة عام الماضية من عمر الجائزة[١]، بل لقد صرحوا بإيمانهم المنبثق من علمهم، يقول (جون لينوكس)[٢] عالم الرياضايات في جامعة أكسفور: «كلما ازدادت معرفتنا بالكون تعززت النظرية القائلة بوجود الخالق، واكتسبت المزيد من الصدقية كأفضل تفسير لوجودنا»[٣]، ويقول (بول ديفز)[٤] عالم الفيزياء النظرية: «الدلائل على حدوث الخلق من قبل الخالق أصبحت دامغة»[٥]، والأمثلة كثيرة، ولا عجب فهؤلاء علماء وعندنا من خبر الوحي أن العلماء عامة هم الأقرب إلى خشية الخالق ومعرفته، وصدق الله العظيم رغمًا عن أنف كل مكابر ومعاند: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨].

*****

إلحاد أم تشكيك في الإسلام؟

يقول الدكتور (محمد العوضي)[٦]: «يمكن تصنيف المعادين للدين في خمس مجموعات: المتشككون والمؤدلجون والتغريبيون والعلمانيون، ويأتي الملحدون في آخر

(1) 100 Years of Nobel Prizes, Baruch A. Shalev, Atlantic Publishers & Dist, 2003, page 57.

(٢) جون لينوكس John Lennox فيلسوف وعالم رياضيات إيرلندي ولد عام ١٩٤٣م له مؤلفات متميزة في اللاهوت والأديان ووجود الخالق ويعمل أستاذًا للرياضيات في جامعة أكسفورد.

(٣) عبارة أوردها الأستاذ الجامعي إيرك متاكساس Eric Metaxas الأستاذ بجامعة برجر الذي نشر فيلماً وثائقيًّا أورد فيه بعض أقوال العلماء عن الوجود والإيمان بالخالق وهذه العبارة مقتبسة من مقطع له على موقع (YouTube) أورد فيه عبارات جميلة عن الصراع بين الملاحده والمؤمنين بوجود الله.

(٤) بول ديفز Paul Charles Davies مفكر وفيلسوف إنجليزي يعمل أستاذًا للفيزياء النظرية في جامعتي كامبردج ولندن ولد عام ١٩٤٥م له مؤلفات عن علاقة الفيزياء الحديثة بوجود الله من أشهر كتبه: كيف يفكر الخالق الله والفيزياء الحديثة الذي قال فيه عبارته المشهورة: «قد يبدو غريبًا ولكن في رأيي العلم يقدم مسارًا أكثر رسوخًا إلى الله من الدين» طبعًا يقصد دين أهل الكتاب.

(٥) عبارة مقتبسة من الفيلم الوثائقي الذي أعده إيرك متاكساس Eric Metaxas الأستاذ بجامعة برجر (سبق التعريف به).

(٦) محمد العوضي مفكر كويتي معاصر وأستاذ الدراسات الإسلامية جامعة الكويت ولد في الكويت عام ١٩٥٩م عضو الهيئة العالمية للإعلام وله أنشطة متعددة ومتميزة في توجيه الشباب ومقاومة الإلحاد من واقع التعايش والمعاصرة: (ركاز لتعزيز الأخلاق) الشبكة العنكبوتية.

المطاف، إن غالبية هؤلاء تغشاهم صحوة فكرية توقظهم، ويدركون من خلالها أهمية الدين، ومن ثم الرجوع إليه، وبعضهم أصبح من خيرة من ينافحون عنه، ويردون على شبهات المبطلين، ومن أشهر هؤلاء عبدالرحمن بدوي، ومصطفى محمود، وعبدالوهاب المسيري، وخالد محمد خالد»[1]، على الرغم من أن الإلحاد يقف على الطرف المناقض والرافض لجوهر جميع الأديان السماوية، ما يعني أنه ضد كل دين يؤمن بوجود الله، إلا أن تركيز دعاته على العالم الإسلامي بشكل خاص يثير تساؤلًا منطقيًّا عن سبب تخصيص هذه المزاحمة لإيمان المسلمين أكثر من غيرهم، وما ذاك إلا لإقرارهم الضمني بأن إيمان المسلمين قوي ومتين وخطير على الضالين وأهدافهم، وأنه من الرسوخ بدرجة لا تجعله يهتز بسبب تشكيكهم فيه من أول وهلة، بل ربما لا يتأثر أبدًا عند من شرح الله صدورهم للإيمان، وثبتهم الله.

نحن نحكي واقعًا مريرًا في حق أمة الإسلام لا نقبل معه اتهامنا بعقدة المؤامرة ونحن الضحية المباشرة، فما من شك أن موجة تسويق الإلحاد في أوساط المسلمين خاصة ما هي إلا جزء من الهجمة الشرسة والظالمة على العالم الإسلامي، بهدف محاولة فصل القلوب المؤمنة عن ربها الذي منه تستمد كل شيء بما في ذلك قوتها في مواجهة أعدائها المتربصين بها وبدينها وبمقدراتها ومقدساتها، ولكن هيهات بحول الله وقوته، فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم، ومع أن جميع الوسائل والأدوات الدنيوية تكاد تكون بيد خصوم المسلمين اليوم، إلا أن الإسلام بفضل الله ينتشر عالميًّا بذاته على الرغم من هزيمة المسلمين سياسيًّا وإعلاميًّا واقتصاديًّا، وبمعدل أذهل الجميع كمؤشر على أن الإنسانية ليست فقط مقتنعة بالإيمان بوجود الخالق بشتى أديانها وطوائفها فحسب، بل أيضًا تتجه لاعتناق دين الفطرة الذي هو أكثرها طمأنينة وعلاجًا للنفوس الحائرة كما وجدوه هم، وصرحوا به بعد إسلامهم.

ومع هذا كله فلا نزال نؤكد أنه لا داعي لابتلاع مرارة طعم التهويل من ظاهرة الإلحاد بين الحين والآخر، فالأولى نقل النفوس الحائرة إلى حدائق التبشير ليس فقط بالإيمان بوجود الله، ولكن أيضًا بقبول الإسلام وانتشاره عالميًّا، ولو تحدث المسلمون

(١) وهم الإلحاد، شريف، (مرجع سابق)، ص١٢٦.

عن انتشاره لربما قيل: هذا نوع من الدعاية والتسويق والتشويق المجرد، ولكن هناك أخبار وشهادات كثيرة بحمد الله تصدر من جهات محايدة نعلم يقينًا مدى إزعاجها للظالمين ومن بينهم دعاة الإلحاد، فعلى سبيل المثال نشرت محطة (السي إن إن) الأمريكية تقريرًا جاء فيه أن أكثر من عشرين ألف أمريكي يعتنقون الإسلام سنويًّا، وأنه خلال اثنتي عشرة سنة، تم تشييد أكثر من ألف ومئتي مسجد في أمريكا وحدها، وأن كل أمريكي يعتنق الإسلام يتحول إلى داعية مقنع جدًّا لبني قومه وبكفاءة لا تقارن بالمسلم الوافد للدعوة إلى الإسلام؛ لما وجد في الإسلام من إجابات للكثير مما في نفوس الناس من تساؤلات محيرة، فيتغير سلوكه ومعاملاته للآخرين، وتتقلص نزعة العدوانية والشر إلى أدنى حد، خلاف ما كان عليه من قبل إسلامه، وهذا ما دفع الكثير من إدارات السجون الغربية للاستعانة بالمسلمين لعلاج ظاهرة الجريمة وتهذيب سلوك المجرمين، ولما أسلم اللورد البريطاني (هدللي) قال عبارته المشهورة التي سببت زلزالًا مدويًا لدى أوساط المتكبرين على الحق: «إنني أعتقد أن هناك آلافًا من الرجال والنساء أيضًا مسلمون قلبًا، ولكن خوف الانتقاد والرغبة في الابتعاد عن التعب الناشئ عن التغيير، منعهم من إظهار معتقداتهم»[1].

وذكرت مجلة ديرشبيجل الألمانية نقلًا عن جريدة (المسلمون) خبر إسلام ٨٠٠٠ امرأة ألمانية في النصف الثاني فقط من عام ١٩٩١م، وتأكيدًا على صدق إيمانهن وحبهن للإسلام أطلقن على أنفسهن اسم (أخوات محمد)، ومن المؤكد أنه سيفقد أعداء الدين توازنهم عندما يسمعون بحسب الإحصائية الرسمية الألمانية أن معدل اعتناق الإسلام في ألمانيا قد يصل في ذروته أحيانًا إلى أن مواطنًا ألمانيًّا واحدًا يدخل الإسلام في أقل من يوم، وأنه بعد نشر الصور المسيئة للنبي ﷺ زاد عدد الداخلين في الإسلام في الدانمارك، حيث بلغ أكثر من ٥ آلاف عام ٢٠٠٨م، أما في الشرق الآسيوي فقد أسلمت بالكامل قرية (كوان جو) القريبة من مدينة سيول عاصمة كوريا الجنوبية، وعدد سكانها ٣٠٠٠ نسمة نقلًا عن (جريدة المسلمون)، ونقلًا عن (صحيفة الخبر السودانية) أيضًا، فقد اعتنق الإسلام ٦٥ رجل دين نصراني في السودان دفعة واحدة،

(١) مجلة الوعي الإسلامي، عدد ٥٣٢ تاريخ ٣/ ٩/ ٢٠١٠م، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت.

والغريب أن سبب إسلامهم هو أنهم وجدوا تلك الدقة العجيبة في توزيع الميراث في القرآن، تخيل كيف كان توزيع الميراث سببًا في إسلام قساوسة عقلاء لعدله، في الوقت الذي تجد من المستغربين من أبناء المسلمين من يجعل من قضية توزيع الميراث في الإسلام مدخلًا للنيل منه والتشكيك في نصوصه وقيمه الاجتماعية، وذكرت الجريدة نفسها أن عدد من اعتنقوا الإسلام في السودان خلال عام ٢٠٠٤ وحده تجاوز ٨٨ ألفًا، هذا كله يحدث بسبب الخصائص الذاتية للدين المرغوب فطريًّا، دون تدخل من سلطة أو جيش، ولم يكن هناك جهاد، ولا وجود صحابة يدعونهم إلى الإسلام، بل كان ذلك على يد قساوسة سابقين، وسلاطين قبائل هداهم الله لدينه الحق، فأسلموا، فآتاهم الله أجرهم مرتين بما صبروا، وصابروا، وأصبحوا دعاة مخلصين.

ولسنا في حاجة إلى الاسترسال في الحديث عن انتشار الإسلام عالميًّا وعلى مدار اليوم والساعة، لكن تبقى الصفعة الأكبر على كل ملحد أنه في موسكو نفسها عاصمة الاتحاد السوفيتي سابقًا، أي عاصمة أكبر مشروع متكامل لغرس الإلحاد بالقوة الجبرية لمدة ٧٠ عامًا على مر تاريخ البشرية، المدينة التي أرادها (ماركس) و(لينين) و(ستالين)، أن تكون عاصمة الإلحاد على كوكب الأرض، زادت نسبة المسلمين فيها على ٢٠٪ فضلًا على نسبة المؤمنين بالله المبغضين للإلحاد من الديانات الأخرى، وبحسب دراسات أعدتها صحيفة البرافدا[1] السوفيتة، فإن الإسلام سيكون دين روسيا الأول بحلول ٢٠٥٠م.

إنما نذكر هذه الشواهد من أجل ردع الأعداء المشككين الذين يوهمون الناس بضعف الإسلام، وإلا فمعتقدنا أن من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، ونحمد الله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا على هذه النعمة، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، ولا حول ولا قوة إلا بالله، إن وجود الخالق، وما خلقه في هذا الوجود أكبر من خلق الناس، وهو وجود لا ينتظر إجازة ولا إقرارًا من ذلك الإنسان الضعيف المغرور، الذي يريد أن يحادّ الله ورسوله، ويزعم أنه يملك إطفاء نور الله في ملكه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ

(١) صحيفة البرافدا، عدد يوليو، ٢٠٠٨م.

﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: ٢٠- ٢١] ولا يقل عنه مسكنة وضعفًا ذلك المسلم المنان بإسلامه، الذي يظن أنه بإيمانه ينفع الخالق، أو يضره بكفره، بينما مقامه عند الله الغني عنه هو كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٥٤].

*****

الملحدون والصراع مع الذات!

يستحيل على من أطلق يده من الوحي (العروة الوثقى)، أن يجد بديلًا يروي به عطشه المعرفي عن عالم الغيب في الحياة الدنيا، ومن أظلم ممن فعلها، فوجد نفسه في تيه وضياع، هذا الضياع واليأس المعرفي هو بيئة وجود الملحدين الأوائل عبر التاريخ، الذين عُرفوا بالدهريين والذين يؤمنون بما يحسونه مما حولهم، ويأكلون، ويشربون، ويعتقدون أن الموت هو آخر المطاف بهم، وقد أشار إليهم القرآن مؤكدًا غرقهم في بحر الظنون ونافيًا عنهم العلم: ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [الجاثية: ٢٤] لكن هذه الأقلية الملحدة على مدى تاريخ الإنسان لا يخلو آحادهم من بقايا إيمان دفين يكابرون في إخفائه، لولا أنه يفلت منهم في لحظات الخوف والاضطراب، لذلك لنا الحق كل الحق ألا نكترث بهم قلوا أم كثروا، انظر إلى ما يقوله أحد أبرز رموز الإلحاد في التاريخ (ديفد هيوم) في كتابه (رسالة في الطبيعة البشرية)، يقول فيها: «إن شيئًا ما يبعث على القلق فيما يتعلق بمفهوم العلة والاستدلال النسبي!»[1]، وهو هنا يشير ضمنًا إلى وجود العلة الأولى عند الفلاسفة، وهي الإيمان بالخالق، وصدق الله العظيم القائل: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٣] وهذا الجحود لا يمكنه إخفاء كل ما قد يضمرونه من يقين سري، كتموه ظلمًا وعلوًّا واستكبارًا، كما وصف

(١) الفلسفة ببساطة ولسون (مرجع سابق)، ص٢٥.

القرآن حال أقرانهم من قبل في قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

يحق لنا بوصفنا مؤمنين - بفضل الله ومنته - أن نفرح بهذا الإيمان، نلوذ به ونطمئن إليه، وألا نكترث بهذه الانحرافات الدخيلة على التدين العام عبر التاريخ الإنساني، وألا نتطرق إلى موضوع الإلحاد إلا من باب التذكير بنعمة الإيمان وتحصينه من الملوثات والرغبة في إنقاذ المخدوعين من ضحايا هذه الظاهرة الطارئة، طمعًا في هدايتهم إلى الحق دون قلق من ضلالهم إذا أصروا على ذلك، فالهداية من الله، وليس علينا هداهم، ولا يضرنا ضلالهم إذا اهتدينا، وفي نهاية مطاف هذا الوجود، سينتهي بنا الأمر إلى أن كل نفسٍ بما كسبت رهينة، فالمرء لا ينفع ولا يضر إلا نفسه، وهو مسؤول عنها بعد تبيان الحق وترك الخيار له ليقرر مصيره بنفسه: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

لسنا هنا نتسامر أو نتسلى في الكتابة، أو نروّح عن بعضنا، أو نقتل الفراغ، ولكن حديثنا في هذا الأمر ضروري جدًّا لانتشال الغرقى من بحور الوساوس والشكوك، وخاصة أولئك المؤمنين الذين يكبتون ما في نفوسهم من تساؤلات خوفًا ووحشة بسبب تضليل الملحدين لهم وترويعهم، فهؤلاء يحتاجون إلى من يوقد شعلة الإيمان الكامنة في قلوبهم، المتعطشة للحق والسلامة، والقلقة من المستقبل، وحقهم علينا أن نقف معهم، ونتلمس معهم سبيل النجاة لنناولهم طوقها، فالموقف يقتضي من الجميع وقفة شجاعة ومصارحة أمينة لاحتواء إخوة الإيمان جميعًا دون اكتراث بما يرجف به الملحدون، ممن يجحدون الإيمان، ويتظاهرون بالإلحاد مكابرين أمام الملأ، وبمجرد أن نتابع محاضراتهم وبحوثهم ومؤلفاتهم، نلمس منها نزعة التحدي بينما يميلون نحو الحق في أنفسهم بسبب قوة فطرية كامنة، في الوقت الذي يمارسون عليها أقصى درجات الرقابة؛ خشية انفلات الحقيقة منهم فتحرجهم، لكن يأبى الحق إلا أن يظهر ولو كره الكافرون.

كثيرٌ من أولئك انفلتت منهم كلمات فطرية تناقض كل ما ينظرونه ويشيعونه، ولا غرابة في الأمر، إنها الفطرة الكامنة رغمًا عنهم، عراك داخلي وبراكين متفجرة بين

من يدعي الإلحاد، ونفسه أسرار داخلية صامتة لو تم عرضها على شاشة عرض ناطقة، لرأينا العجب العجاب! لكن كل العزاء في أنك عندما تقف وجهًا لوجه مع مدعي الإلحاد تشعر وكأنك تقف إلى جوار من يعاني جميع الأمراض حتى لو كان سليمًا، يضطرب قلقًا من الماضي والحاضر والمستقبل، ثم ينكشف كذب الملاحدة بأنهم إنما لجؤوا إلى الإلحاد ظنًّا منهم أنه النجاة لهم من الكآبة، فما زادهم إلحادهم هذا إلا رهقًا، لم يجدوا حلًّا للمشكلة بعد أن نأوا بأنفسهم عن عالم الأوهام والخرافة – كما يزعمون! وعلى الرغم مما يقال عن (رينيه ديكارت) من شكوك منهجية في التفكير إلا أنه سطر في آخر عمره هذه العبارة الجميلة استسلامًا للحقيقة: «إن في عقلي منذ مدة بعيدة فكرة تقرر أنه يوجد إلهٌ قادرٌ على كل شيء وهو الذي منحني وخلقني على الحال التي أنا عليها»[1]، وقال معجبًا بالآيات الكونية ومدلولاتها الصادقة على عظمة الخالق: «إن الله لا يمكن أن يَخدع؛ لأنه ليس ضعيفًا يضطر إلى الخداع»[2].

ويعتمد كثير من الملحدين على أفكار عالم الأحياء الشهير (تشارلز داروين)[3]، صاحب نظرية التطور التي ابتدعها عام ١٨٣٨م، وأبطلها علماء معاصرون[4] بعد اكتشاف هيكل عظمي لإنسان إثيوبي عاش قبل أربعة ملايين عام، بل وصل الأمر في رفض النظرية أن حمّل العالم الأمريكي (ريتشار فيكارت) دارون مسؤولية جرائم الحروب التي استند قادتها على نظريته، فيقول: «لقد نجحت الداروينية أو تأويلاتها

---

(١) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الأول، ص٤٩٤.

(٢) الفلسفة ببساطة، ولسون، (مرجع سابق)، ص١١٩.

(٣) تشارلز داروين Charles Robert Darwin (١٨٠٩ - ١٨٨٢م) الموافق (١٢٢٤ - ١٢٩٩هـ) عالم الأحياء الطبيعي الشهير الذي وضع نظرية التطور في كتابه (أصل الأنواع) يرى أن أصل الأحياء واحد ما عدا الإنسان ثم أضاف الإنسان إلى نظريته بعد فترة إذ لم يَرَ مبررًا لاستثنائه من النظرية يرى أن الحياة لغز خارج عن نطاق العقل كانت نظريته هذه أساس لفلسفة التطور، وقد أثارت جدلًا واسعًا: (تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم، ص٣٥٥).

(٤) لقد أثبت يوهانسن Johannsen (١٨٥٥ - ١٩٢٧م) أن الملاءمة للبيئة أوعدمها ليستا مما يُورِث التطور العضوي ما يعني إبطال البند الخامس من المشاهدات التي اعتمد عليها داروين وكذلك فعل العالم الهولندي هيجو دي فريز Hugo de Vries (١٨٤٨ - ١٩٣٥م) في إبطال المشاهدات الرئيسة التي اعتمدها داروين في إثبات نشوء النوع وارتقائه وعزا ذلك إلى (الطفرة mutation) أو التنوع غير المستمر: (نقلًا عن: موسوعة الخلق والنشوء، حاتم ناصر الشرباتي، الناشر: مكتبة الإيمان، المنصورة، مصر).

الطبيعية لقلب موازين الأخلاق رأسًا على عقب، ووفرت الأساس العلمي لأمثال هتلر وأتباعه لإقناع أنفسهم ومن تعاون معهم، بأن أبشع الجرائم العالمية كانت في الحقيقة فضيلة أخلاقية مشكورة»[١]، وأشد من تمسك بهذه النظرية هم دعاة المادية المتجردة من الأخلاق، لقد تبنى عشاق هذه النظرية ما يسمى الصحة العرقية التي من أهم بنودها التخلص من المرضى والمعاقين والمشوهين! ومنها قانون التعقيم الذي أصدره النازيون عام ١٩٣٣م لمنع قطاعات بشرية كالمعوقين والمرضى بالصرع والعمى والصمم من التكاثر والإنجاب[٢]، ولم يكن (داروين) نفسه ملحدًا على الرغم من إصرار مروجي ظاهرة الإلحاد على زعمهم بأنه كان ملحدًا، وحرصهم على إخفاء نصوص إيمانية قالها داروين نفسه، مثل مقولته الشهيرة: «من الصعب جدًّا أن كونًا ككوننا، وبه مخلوق يتمتع بقدرتنا الإنسانية الهائلة، قد نشأ في البداية بمحض المصادفة، أجدني مدفوعًا بقوة للقول بمصمم ذكي، ومن ثم فأنا أومن بوجود الإله»[٣].

والجدير بالذكر أن (داروين) نفسه لم يكن فيلسوفًا، بل كان عالم طبيعة، ألف كتابه الشهير (أصل الأنواع بطريقة الانتخاب الطبيعي)[٤]، وأصبح صاحب مذهب التطور، ولكن الذي سوّق نظرية دارون فلسفيًّا هو (هيربرت سبنسر)، فأصبحت تسمى فلسفة التطور فيما بعد، وتنسب إلى داروين[٥]، الذي لم يقصد فلسفة التطور، وإنما خلص إلى نظرية التطور العلمي من وجهة نظره طبعًا، من خلال التركيز على تطور الحياة على الأرض، وحتى تدرك أخي القارئ، مدى الغش في تسويق تلك النظرية والتلبيس في ترجمتها وتسويقها، فقد جاء في الفصل السادس، من الترجمة العربية لكتابه (أصل

(١) من داروين إلى هتلر ريتشارد فيكارت ص٢١٥ (نقلاً عن: كهنة الإلحاد الجديد، هيثم سرور، (مرجع سابق)، تقديم: الدكتور عبدالله الشهري، ص٢٥).

(٢) الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، عبدالوهاب المسيري، دارالفكر، دمشق، الطبعة الخامسة، ٢٠١٣م، ص٢٣٠.

(٣) وهم الإلحاد، شريف، (مرجع سابق)، ص٧٩.

(٤) كتاب أصدره داروين عام ١٨٥٩م يتحدث عن بقاء النوع بطريقة الانتخاب الطبيعي والبقاء للأصلح ويُعدّ من أكثر الكتب المثيرة للجدل في العصر الحديث ويُعدّ أحد الأعمال المؤثرة في العلم الحديث وإحدى ركائز علم الأحياء التطوري.

(٥) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، (مرجع سابق)، ص١٨٦.

الأنواع) المطبوع عام ١٩٥٩م، تحت عنوان (مشكلات النظرية)، أن داروين نفسه قال فيه: «إني لا أَشُكّ في أنّ اعتراضات كثيرة قد خطرت ببال القارئ قبل أن يصل إلى هذا الفصل من كتابي، وبعض هذه الاعتراضات خطير إلى درجة أني حتى اليوم، لا أفكر فيها إلا وتعتريني هَزّة!!»، فإذا كان صاحب النظرية تعتريه (هزة!) في حياته من مواجهة ما يقال عن نظريته من اعتراضات، فمن أين جاءت تلك العصمة والقداسة لها من المتأخرين؟ وإن تعجب فعجب أن هذه العبارة قد (اختفت تمامًا) من النسخة التي نشرتها مطبعة النهضة، ترجمة إسماعيل مظهر[١]!!

وبغض النظر عن صحة نظريته من عدمها، فقد أقر داروين نفسه بعجز العقل عن إدراك حقيقة الكون وعلة وجوده[٢]، ولو تأملت نظرية دارون على الرغم مما قيل عن بطلانها فستجد أنها لا تتعارض مع الوجود والإيمان بالخالق، فهي نظرية تصف التطور بين الأنواع بيلوجيًّا، ولم يتطرق داروين لخالقها، بل إن أتباع داروين أنفسهم أخذوا عليه إصراره على الإيمان بالله الخالق، واتهموه بمجاملة الكنيسة[٣].

أما حقيقة سر الحياة على الأرض فهو أمر غيبي فوق مقدرة البشر، وصفه (أندرو كنول)[٤] أستاذ التاريخ الطبيعي والحفريات في جامعة هارفارد بقوله: «ما زلنا لا نعرف متى بدأت الحياة بالتحديد، وما زلنا لا نعرف تحت أي ظروف بدأت الحياة، وما زلنا لا نعرف متى بدأت الحياة على هذا الكوكب»[٥]، وذهب عالم الفسيولوجيا الشهير (جورج والد)[٦] الحاصل على جائزة نوبل من كتابه (الحقيقة حول أصل الحياة)، إلى أبعد مما توصل إليه (كنول) فقد ركز على وجود الذكاء والتصميم وراء نشأة الحياة،

---

(١) الخلق والنشوء بين ضلال النظريات وحقائق الإسلام حاتم الشرباتي وموسوعة الخلق والنشوء حاتم ناصر الشرباتي الناشر: مكتبة الإيمان، المنصورة، مصر.

(٢) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، (مرجع سابق)، ص١٩٤.

(٣) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، (مرجع سابق)، ص١٩١.

(٤) أندرو كنول Andrew Knoll ولد عام ١٩٥١م، وعمل أستاذًا للتاريخ الطبيعي والحفريات في جامعة هارفارد: (رحلة عقل، عمرو شريف، (مرجع سابق)، ص١٠٣).

(٥) رحلة عقل، شريف، (مرجع سابق)، ص١٠٣.

(٦) جورج والد George Wald (١٩٠٦- ١٩٩٧) الموافق (١٣٢٤- ١٤١٨هـ) أستاذ وظائف الأعضاء في جامعة هارفارد: (رحلة عقل، عمرو، (مرجع سابق)، ص٥).

فيقول: «إن التفسير الوحيد المرضي عقلًا لوجود الحياة ذات الغاية والقادرة على التكاثر التي تحكمها آلية التشفير الوراثي هو الإقرار بوجود الإله القديم الحكيم القادر»[1].

*****

الملحدون يلوذون بدفء الإسلام

إن المنصفين في كل مرحلة من مراحل التاريخ، يشهدون بالحق الذي يتجلى في لحظة ملامسة عقل الأديب أو الفيلسوف أو حتى المستشرق لنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية، إنهم يشهدون بذلك حتى لو منعهم الكبر، أو حال بينهم وبين الحق اعتبارات اجتماعية زائفة من أن يعلنوا إسلامهم الصريح على الملأ، ومن أشهر قصص الإلحاد في تاريخنا المعاصر ما حدث مع بروفسور الرياضيات في جامعة كنساس الأمريكية (جيفري لانج)[2]، الذي ولد عام ١٩٥٤م كاثوليكيًّا، ثم اعتنق الفكر الإلحادي قبل أن يكمل الثامنة عشرة من عمره، وفي أواخر الثمانينيات اعتنق الإسلام، ولكن أي إسلام؟ إنه الإسلام الحق المستقر في سويداء قلبه دون أن يلتفت إلى ما حوله، الإسلام الذي ذاق طعمه بعد أن تجرع مرارة الجاهلية من كفر وإلحاد قد لا تصدقه، وهو بعد ذلك التاريخ الأسود يستنير بنور الإسلام، وينعم بعباداته، استمع إليه وهو يبوح بما في نفسه واصفًا صلاة الفجر التي يستمتع بالاستيقاظ لها دون أن يبالي بالنائمين من الناس: «صلاة الفجر بالنسبة إلي هي إحدى أجمل الشعائر الإسلامية وأكثرها إثارة، هناك شيء خفي في النهوض ليلًا والجميع نائم، لتسمع ترتيل القرآن يملأ سكون الليل، تشعر وكأنك تغادر هذا العالم، وتسافر مع الملائكة، لتمجد الله بالمديح عند الفجر»[3].

---

(١) رحلة عقل، شريف، (مرجع سابق)، ص١٠٥.

(٢) جفري لانج Jeffry Lang عالم رياضيات معاصر ولد عام ١٩٥٤م يعمل في جامعة كنساس ولد كاثوليكيًّا ثم ألحد أكثر عمره حتى أسلم بسبب اطلاعه على ترجمة معاني القرآن الذي أهداه إليه طالب مسلم من مؤلفاته (الصراع من أجل الاستسلام) وكتاب (حتى الملائكة تسأل): (رحلة إلى الإسلام في أمريكا، ترجمة: منذر العبسي، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان).

(٣) الصراع من أجل الإيمان جفري لانج ترجمة منذر العيسى دار الفكر المعاصر ٢٠١٢م ص٣٤ و(قصة إسلام عالم الرياضايات الأمريكي جيفري لانج، إبراهيم عوض، جريدة الشعب الجديد، ٢٩ يناير ٢٠١٥م).

ولا تقل شهرة قصته عن قصة الفيلسوف البريطاني السير(أنتوني فلوو)[1]، الذي تنقل في كل مكان تقريبًا ليسوق فكره الإلحادي، وكان من أشهر منظري الإلحاد في القرن العشرين، وكتب عشرات المقالات والكتب مبشرًا بفكره مستشهدًا بكثير من أقوال من سبقوه، ها هو يصرح لوكالة (آسيا نيوز) في التاسع من ديسمبر ٢٠٠٤م بأنه تراجع عن إلحاده! وأن التأمل في مراحل علم الأجنة دفعه للإيمان بالخالق ﷻ، وانتقل من كونه من أشهر ملاحدة العالم، إلى رجل يحمل ثقة إيمانية بخالق لا مثيل له دفعه إلى استبعاد اعتناق المسيحية؛ لأن الإله في عقيدتهم ليس بالمواصفات المنزهة التي توصل إليها من خلال تأمله للاكتشافات العلمية الحديثة، وأنه يجد في إله المسلمين الأقرب لما توصل إليه. لقد ضل بسببه آلاف الملحدين في أوروبا طيلة العقود الماضية، ولك أن تتخيل صدمتهم لما علموا بإيمانه بالخالق، بل وإصراره ودفاعه وبرهنته على موقفه الجديد بالحجة العلمية، كتعليقه الصريح على تشبث الملحدين بنظرية نشوء الكون المعروفة بالانفجار الكبير (Big bang)[2] التي تقول: إن الكون حدث مصادفة من دون خالق، يقول (فلوو): «يقولون: إن الاعتراف يفيد الإنسان من الناحية النفسية، وأنا سأُدلي باعترافي.. إن نموذج الانفجار الكبير شيء محرج جدًّا بالنسبة إلى الملحدين.. ذلك لأن العلم أثبت فكرة دافعت عنها الكتب الدينية، ويعترف للعالم بصنع الخالق ﷻ»[3]، لم يكن بوسع أنتوني فلوو أن يتغلب على قوة حجة (التصميم الذكي للكون)[4] التي أوصلته بقوة المنطق إلى الإيمان بوجود الله، وكيف له أن يكابر وهذا صاحب نظرية الانفجار العظيم نفسه (فريد هاللي) يقول: «إن إلحاده تعرض لهزة عنيفة بسبب

---

(١) أنتوني فلوو Anthony Flew فيلسوف الإلحاد الشهير في النصف الثاني من القرن العشرين ولد في لندن عام ١٩٢٣م قاده العلم والعقل على أن ينهي إلحاده بإيمان مدوٍ بوجود الله بعد أن تجاوز الثمانين من عمره: (رحلة العقل، شريف، (مرجع سابق)، ص١٣).

(٢) نظرية الانفجار العظيم (Big Bang): هي أقصى فرضية ممكنة توصل إليها علماء الفلك في العصر الحديث حول كيفية بدء الكون، ولا تزال محل خلاف وجدال شديد بين العلماء.

(٣) كهنة الإلحاد الجديد، هيثم سرور، (مرجع سابق)، ص١٢٠.

(٤) التصميم الذكي : مصطلح جديد للاستدلال على وجود الخالق ويعني أن نشأة الكون ونشأة الحياة في غ الانتظام والتعقيد الذي يفوق الخيال البشري يستبعد تمامًا أن تكون حدثت بشكل تلقائي أو من ضعيف، وتحتم أن يكون وراءها مصمم ذكي وقوي.

الاكتشافات العلمية»، وفي إشارة مباشرة إلى اعتراضه على نظرية الانفجار يقول: «تقول نظريه الانفجار الكبير: إن الكون نشأ نتيجة انفجار كبير، ولكننا نعلم أن كل انفجار يشتت المادة، ويعدّها دون نظام، ولكن الانفجار الكبير عمل عكس هذا بشكل محفوف بالأسرار، إذ عمل على تجميع الماده معًا لتشكل المجرات»[٥]، وقد اعترف (كريستوفر هيتشنز)[٦]، وهو من أشد المعاندين في الإلحاد بقوة حجية المؤمنين بوجود الله فقال: «من دون شك أن حجية الضبط الدقيق هي أقوى حجة للجانب الآخر»[٧]، ويقصد بالجانب الآخر هم المؤمنون بوجود الله.

*****

(أنتوني فلوو) يخلط الأوراق

لقد كانت صدمة الملحدين بهذا التحول من (أنتوني فلوو) عنيفة جدًّا، ومن أشد من اضطرب لهذا التحول كبير الملاحدة الجدد (ريتشار داوكينز) الذي اتهمه بتقدم العمر وبالخرف، مشيدًا بفيلسوف الإلحاد السابق (رسل) الذي ثبت على منهجه حتى مات على الإلحاد! والحقيقة هي أن هذا الموقف من (داوكينز) كان انتقاميًّا متشنجًا، ويكفي أنه عندما سئل عن الأشياء التي يعتقد بصوابها وصحتها في الوجود أجاب مبتدئًا بكلمة (أعتقد)! إذ لا برهان عنده في شيء مما قاله، بينما هو يأخذ على (فلوو) أنه انتقل من أوهام الاعتقاد التي ما زال (داوكينز) وأمثاله غارقين فيها إلى الحقائق المثبتة بالبراهين القاطعة والحجج الدامغة، عندما توصل إلى الإيمان بوجود الخالق

---

(5) The Intelligent Universe, Fred Hoyle, 1984, Page 184.

(٦) كريستوفر هيتشنز Christopher Eric Hitchens (١٩٤٦ - ٢٠١١م) الموافق (١٣٦٥ - ١٤٣٢هـ) مؤلف إنجليزي صريح ومثير للجدل وصفه أحد أصدقائه بأنه غالبًا يسبح عكس التيار وهو من أشد المنافحين عن الإلحاد تخرج في جامعة أكسفورد وعمل صحفيًّا أمضى أكثر حياته في الولايات المتحدة الأمريكية مات بمرض السرطان!

(٧) هذه العبارة مقتبسة من مقطع من فيلم وثائقي عن الوجود والإيمان بالخالق أعده وقدمه إيرك متاكساس Eric Metaxas المؤلف والباحث الأمريكي والأستاذ بجامعة بريجر جامعي المقطع موجود على موقع (اليوتيوب) أورد فيه عبارات جميلة عن الصراع بين الملاحدة والمؤمنين بوجود الله.

من خلال رحلة طويلة مبنية على الحقائق العلمية المذهلة[1]، ما جعل أستاذ الفيزياء في جامعة موموريال الكندية (جون باور) يصب جام غضبه على (داوكينز) ويقول له معنفًا: «إن ما تعانيه من مشكلات مع الدين يرجع إلى أنك لست عالمًا حقيقيًّا، بل أنت من البيولوجيين العاجزين عن تصور ما في الكون والوجود من تعقيد، فأنت ما زلت محكومًا بعقدة البيلوجيين التطويريين في القرن التاسع عشر الذين يريدون إثبات وجهة نظرهم ولو على حساب الحقيقة»[2].

وسبحان الله! بعد أن كان (فلوو) متصدرًا جبهة الإلحاد في العالم خمسين عامًا، أصبح من أقوى من يقف في وجه حماقات الملاحدة الجدد مفتتًا حججهم بما لديه من ذخيرة فكرية عميقة عن حجج الطرفين، وصدق الله العظيم: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣١] بيد أن (فلوو) لا يزال مترددًا في الوصول إلى الحقيقة الإيمانية الحقة، فلم يقبل اليهودية ولا الإسلام بوصفهما دينًا؛ لأنه يرى فيهما وصفًا للإله المنتقم الجبار! ولم يقبل النصرانية؛ لأنه يرفض فكرة تجسد الإله في هيئة بشر، ولم يحسم مسألة البعث بعد الموت، واصل رحلته في البحث عن الحقيقة بكل حزم، ووضعه أقرب إلى المدخل الصحيح (للدين الحق) الذي يؤمن المرء بالله، ولا يكترث بالأديان.

لقد كانت رحلته شاقة ومضنية، فقد بدأ رحلته طفلًا صغيرًا ملحدًا في بيت متدين، ثم أعلن إلحاده بعد أن تجاوز العشرين من عمره، وأضفى عليه غطاء فلسفيًّا جذابًا، ثم أصبح داعية الإلحاد والحارس القائم عليه والمنافح دونه، ثم دخل مرحلة الشك بعد أن تجاوز السبعين من عمره، وانتقل منها إلى اليقين بوجود إله للكون وهو على مشارف الثمانين، رحلة استغرقت أكثر من ستين عامًا، وعلى الرغم من سمو النتيجة التي توصل إليها هذا الفيلسوف المناضل إلا أنه في حقيقة الأمر لم يصل بعد إلا إلى جزء يسير ضئيل جدًّا مما وصل إليه (أبوبكر الصديق) رضي الله عنه من إيمان فياض متدفق بالله والرسول والوحي والبعث خلال جزء من الدقيقه منصتًا فيها إلى الصادق المصدوق محمد ﷺ، وهو يخبره عن ذلك كله بالوحي الذي آمن به، وسلم له تسليمًا.

---

(١) رحلة عقل، شريف، (مرجع سابق)، ص٤١.

(٢) رحلة عقل، شريف، (مرجع سابق)، ص٤٢.

ومن أجمل عبارات (أنتوني فلوو) التي أفصح عنها بعد إيمانه بالخالق إقراره بأن هناك ثلاث قوى جبارة كانت تأخذ بيده للوصول إلى الحقيقة في أثناء رحلته الطويلة، وصفها بأنها: حكيمة، وأخلاقية، وفضولية، أما حكيمة: فلأنه إذا كان هناك إله يسيطر على الإنسان، ويتحكم في مصيره، فمن الحمق ألا نتعرف إليه، ونعمل على مرضاته، وأخلاقية: لأن الحقيقة هي التي تثير اهتمام الإنسان، وتحقق له الخلود، وفضولية: لأن استكشاف الأشياء العظيمة فقط هو الذي يثير العقلية العلمية الفلسفية[1].

فهل يعقل المروجون للإلحاد من أمة العرب، ومن يجري وراءهم على غير هدى، هذه النتيجة العظيمة التي توصل إليها هذا الفيلسوف الواقعي بعد طول عناء، فاعتنقها غير مبالٍ بصرخات المستنكرين؟ وبعبارة أخرى: ماذا عليهم لو قبلوا، وتقبلوا خبر السماء المفصل الميسر لكل مُذَّكِر؟، الوحي الذي جاء بشيرًا ونذيرًا لكل أمة ليوصلها إلى أفضل مما توصل إليه (فلوو) دون أي عناء أو مشقة، أفلا يتدبرون هذا القرآن العظيم الذي يغنيهم بما فيه من هدى ونور عن هذه الرحلة المضنية الشاقة للوصول إلى الإيمان؟ ومن سيضمن لكل إنسان البقاء ثمانين عامًا تحت التجارب والأذواق والأعاصير الفكرية لكي يصل إلى ما وصل إليه (فلوو) إن كان يملك عقليته وإصراره على الوصول إلى الحقيقة؟!

أما نحن المسلمين فسنبقى نعظم هذا القرآن الذي جاء منسجمًا متكيفًا مع الزمان، ثابتًا ثبات الفطرة البشرية في الوجود، راسخًا رسوخ الجبال مع تتابع الأجيال وتبدل الأفكار، وأهم من ذلك أنه حاضر في المقدمة في أي ميدان جدال أو منطق، والسر في ذلك لأنه من عند الله، ولأنه يهدي للتي هي أقوم في كل شيء، ووصفه العليم بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

أرأيت - أخي القارئ - أن الأمر عندنا نحن المسلمين مختلف تمامًا عما كان عليه أهل الكتاب، فبفضل نعمة الإسلام أصبحنا نعلم علم اليقين ونحن واثقون مطمئنون بحمد الله أن هذا الدين الذي نعتقده هو الدين الحق، المنزل من عند الحق، خالق

(١) رحلة عقل، شريف، (مرجع سابق)، ص٤٤.

كل شيء بحق، إنه دين الإسلام الذي لا تقف جاذبيته عند الحد النظري والتنظيري فحسب، بل تتجلى في جاذبية من نوع آخر يتلقاها بارتياح أولئك الذين يغوصون في عمق التجارب العلمية، فعندما يتحول علماء الطب والفيزياء والفلك إلى مؤمنين، نجد أن كثيرًا منهم فجأة يعتنقون الإسلام أو يقتربون جدًّا منه لمجرد أن يقرؤوا تفسير الظواهر الطبيعية التي توصلوا إليها بالبحث والتجربة، فيجدون الإشارة إليها في القرآن الذي جاء به العربي الأمي (محمد)، وهذا ما نقل (فلوو) من الإلحاد المتطرف إلى أقرب نقطة للإسلام، لمجرد أنه تأمل وتفكر وتدبر في المكان والزمان الصحيحين، فتوصل إلى تلك الوصفات العلاجية النفسية والمنطقية التي ركز عليها القرآن لإنقاذ من غرقوا مثله بالضلال: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١].

*****

تحذير: إما الإيمان أو الهلاك؟

إذًا يا سيدي، عليك بالطريق الرئيس الممهد والمزود (بالإنارة) الربانية الكافية وهو (الصراط المستقيم) ولا تلتفت إلى أي طريق فرعي ضيق موحش، يقول لك الخالق ﷻ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣] دع عنك الانشغال بالجدال والمنطق والكلام والقيل والقال، استعن بالله وحده، وانعم بإيمانك وإسلامك هذا، لا تكترث أو تنزعج عند سماعك لمصطلح الإلحاد، ولا تستجب لدَوِيّ ضجيج الملحدين، دعك من هذا وذاك، ارجع إلى نفسك فالأمر لا يكلفك شيئًا «**قل: آمنت بالله، ثم استقم**»[1]، تذكر أن لا وقت للسفسطة، فالآجال تمضي لنهايتها سراعًا ونحن عنها غافلون، عراك الفلاسفة وأهل الكلام مضيعة للأعمار، ولا يجدي شيئًا، أنت أمام ابتلاء إيماني عظيم سمّه ما

(١) الحديث (٣٨) في صحيح مسلم عن أبي عمرو وقيل أبي عمرة سفيان بن عبدالله رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا غيرك قال: «**قل: آمنت بالله، ثم استقم**».

شئت، المهم أن تستيقظ من سباتك العميق، فتأخذ بزمام المبادرة الذاتية بينك وبين الخالق، وتمسك بطوق النجاة الميسر لك، فالأمر يعنيك أنت وحدك قبل أن يكون قضية فلسفية أو إلحادية مع من حولك، وشأنك أولى من أن يشغلك عنه شأن الآخرين الذين أشغلتهم شؤونهم عنك!

شمر عن ساعد الجد من هذه اللحظة وأنت ترى المؤمنين سائرين في ركبهم إلى الله في طريق واحد، متزودين بزادهم، مهتمين بشأنهم، التفت إلى شأنك وانجُ بنفسك، واحذر أن تكون من المتخلفين القلة عن ركب الجنة من حيث لا تدري، إنك لا تدري لعل الموجودين حولك في الدنيا على الرغم من صخبهم الجدلي أحيانًا، قد رتبوا أمرهم، واختاروا لأنفسهم الطريق الصحيح للسلامة في المستقبل، واتجهوا الوجهة الآمنة التي فيها سعادتهم قبل الموت وبعده، بينما أنت ربما لا تزال غافلًا عابثًا تنظر في وجه هذا وذاك، وتتلقف كل نفثة شك من كل ثعبان سام، متصورًا أنك معني بالكثير مما أنت لست معنيًّا به من شأنهم، وأخطر ما في الأمر أن يمضي عمرك على هذه الحالة لاهثًا وراء سراب الكلام والجدل العقيم مع غيرك، لتجد نفسك أمام اللحظة الحتمية قدرًا، التي ينتظرها كل مخلوق وهي نهاية حياتك في الدنيا فجأة، ينتهي بك المطاف الوحيد قبل الاحتياط والتزود لما بعده، يوم أن تُسجّى في قبرك وحيدًا بما أنت عليه، وحينها إذا لم يكن ثمة إيمان مسبق فلن تجد حالك – عافانا الله وإياك – إلا كما قال تعالى: ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

تحصن بحصن الإيمان الآمن، واعلم أن الإلحاد سواء كان بحجمه الطبيعي الذي ذكرنا آنفًا، أو حتى بالصورة المضخمة التي يسوقها من يعتقدونه، ليس أمرًا مخيفًا كما يتراءى لبعضنا، بل هو ظاهرة ضلال طارئة، وفكر هامشي منبوذ، لا يمكن أن يكون عقبة في طريقك الوجودي، ولا مانعًا من عبورك كَبَدَ الحياة الفانية إلى سعادة الحياة الباقية، وليس بعبعًا مخيفًا يؤدي إلى الشلل الفكري للعقل والزهد في الدين، إنه من الابتلاء الذي تُؤجَر على مجاهدته بالإيمان الراسخ، وأما الفلسفة ورجالها وفنونها، فلنضعها في إطارها الصحيح دون أن نحملها عبء ظاهرة الإلحاد، ولنفهم حقيقة الإلحاد قبل أن نبالغ، ونشارك في تضخيمه، فنغرق به وهمًا لا حقيقة، ثم اعلم علم

اليقين أنه من أوضح علامات هذا الإيمان الصادق في قلبك، هذا الخوف والقلق الذي يغشاك من حين لآخر، مزاحمًا مركز الإيمان الحساس في قلبك، الذي تقابله بفضل الله بالمقاومة، حتى تطمئن على سلامة إيمانك، وإن هذا الإصرار العجيب للثبات عليه، حتى لو كفر من في الأرض كلهم جميعًا، هو محض الثقة، بل هو محض الإيمان المنشود.

لا بد من أن نتعظ بمن كانوا قبلنا، ممن أفنوا أعمارهم بالجدل العقيم، وانتهت آجالهم دونما نتيجة، لقد أخبرنا الله بأن الإنسان على نفسه بصيرة، ولو ألقى معاذيره، وأن كل نفس بما كسبت رهينة، كفى اتكالًا على الآخر في أمر يهمني أنا ويهمك أنت، وهو بينك وبين ربك، اطلب من الله الهداية متضرعًا إليه، واسلك مسالكها متوكلًا عليه، وبعد ذلك ستكون مؤمنًا بإذن الله، متحصنًا من الضلالة بالهدى، ومن الشك باليقين، ولنستمع إلى هذا النداء الكريم المطمئن لي ولك ولغيرنا من المؤمنين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٥] وليكن شعار الواحد منا دائمًا وأبدًا هو (أنا مؤمن تحت أي ظرف)، لنتذكر موقف ذلك العبد الصالح الذي سأل صاحبه مستنكرًا: ﴿أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا﴾،[الكهف: ٣٧] فلم ينتظر إجابته لا بالنفي ولا بالإثبات؛ لأنها لا تعنيه بقدر ما تعني المؤمن الذي قال مجيبًا هو على نفسه التي تعنيه بالدرجة الأولى: ﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴾ [الكهف: ٣٨]، علينا أن ندرك إدراكًا تامًا بأننا في دار الابتلاء وسنسمع من الذين كفروا أذًى كثيرًا، وسنجد من يهول ظاهرة الإلحاد ويعطي عنه أرقامًا لا حقيقة لها في عالم الواقع، فعلينا ألا نلقي لها بالًا، فإذا قيل لنا بأن الإلحاد قد بلغ من الناس كذا وكذا فليكن جوابنا الافتراضي، هب أن جميع من في الأرض كفروا أو ألحدوا، ثم ماذا! نحن هذا شعارنا: ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[المائدة: ٨٤].

*****